

قصة (في القطار) محمود تيمور

قصة (في القطار) محمود تيمور

صباح ناصع الجبين يجلي عن القلب الحزين ظلماته, ويرد للشيخ شبابه,
ونسيم عليل ينعش الأفئدة ويسري عن النفس همومها, وفي الحديقة تتمايل
الأشجار يمناً ويسرة كأنها ترقص لقدم الصباح، والناس تسير في الطريق
وقد دبّت في نفوسهم حرارة العمل، وأنا مكتئب النفس أنظر من النافذة
لجمال الطبيعة، وأسأل نفسي عن سر اكتئابها فلا أهتدي لشيء. تناولت
ديوان "موسيه" وحاولت القراءة، فلم أنجح فألقيت به على الخوان وجلست
على مقعد واستسلمت للتفكير كأني فريسة بين مخالب الدهر
مكثت حيناً أفكر ثم نهضت واقفاً، وتناولت عصاي وغادرت منزلي وسرت
وأنا لا أعلم إلى أي مكان تقودني قدماي، إلى أن وصلت إلى محطة باب
الحديد وهناك وقفت مفكراً ثم اهتديت للسفر ترويحاً للنفس، وابتعت تذكرة،
وركبت القطار للضيعة لأقضي فيها نهاري بأكمله

وجلست في إحدى غرف القطار بجوار النافذة، ولم يكن بها أحد سواي وما
لبثت في مكاني حتى سمعت صوت بائع الجرائد يطن في أذني "وادي النيل،
الأهرام، المقطم" فابتعت إحداها وهممت بالقراءة وإذا بباب الغرفة قد انفتح
ودخل شيخ من المعممين، أسمر اللون طويل القامة، نحيف القوام كث
اللحية، له عينان أقفل أجفانهما الكسل، فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد. وجلس
الأستاذ غير بعيد عني، وخلع مركوبه الأحمر قبل أن يتربع على المق، ثم
بصق على الأرض ثلاثاً ماسحاً شفثيه بمنديل أحمر يصلح أن يكون غطاء
لطفل صغير، ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة وجعل يردد
اسم الله والنبي والصحابة والأولياء الصالحين. فحولت نظري عنه فإذا بي
أرى في الغرفة شاباً لا أدري من أين دخل علينا. ولعل انشغالي برؤية
الأستاذ منعني أن أرى الشاب ساعة دخوله. نظرت إلى الفتى وتبادر إلى
ذهني أنه طالب ريفي انتهى من تأدية امتحانه، وهو يعود إلى ضيعته

ليقضي إجازته بين أهله وقومه. نظرت إلى الشاب كما ينظر إليّ ثم أخرج من حافظته رواية من روايات مسامرات الشعب وهم بالقراءة بعد أن حول نظره عني الأستاذ، ونظرت إلى الساعة راجياً أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر رابع، فإذا بأفندي وضاح الطلعة، حسن الهدام، دخل غرفتنا وهو يتبختر في مشيته ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والترمس. جلس الأفندي وهو يبتسم واضعاً رجلاً على رجل بعد أن قرأنا السلام، فرددناه رد الغريب على الغريب

وساد السكون في الغرفة والتلميذ يقرأ روايته، والأستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود، والأفندي ينظر لملابسه طوراً وللمسافرين تارة أخرى، وأنا أقرأ وادي النيل منتظراً أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر خامس مكثنا هنيهة لا نتكلم كأننا ننتظر قدوم أحد فانفتح باب الغرفة ودخل شيخ يبلغ الستين، أحمر الوجه براق العينين، يدل لون بشرته على أنه شركسي الأصل، وكان ماسكاً مظلة أكل عليها الدهر وشرب. أما حافة طربوشه فكانت تصل إلى أطراف أذنيه. وجلس أمامي وهو يتفرس في وجوه رفقائه المسافرين كأنه يسألهم من أين هم قادمون وإلى أين ذاهبون ثم سمعنا صفير القطار ينبئ الناس بالمسير، وتحرك القطار بعد قليل، يقل من فيه إلى حيث هم قاصدون

سافر القطار ونحن جلوس لا ننبس ببنت شفة، كأنما على رءوسنا الطير، حتى اقترب من محطة شبرا، فإذا بالشركسي يحملق في ثم قال موجهاً:
كلامه إلي:

- هل من أخبار جديدة يا أفندي؟

فقلت وأنا ممسك الجريدة بيدي - ليس في أخبار اليوم ما يستلفت النظر اللهم إلا خبر وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الأمية

ولم يهمني الرجل أن أتم كلامي لأنه اختطف الجريدة من يدي دون أن

يستأذني وابتدأ بالقراءة ما يقع تحت عينيه، ولم يدهشني ما فعل لأنني أعلم الناس بحدة الشراكسة. وبعد قليل وصل القطار محطة شبرا وصعد منها أحد عمد القليوبية وهو رجل ضخم الجثة، كبير الشارب أفسس الأنف، وله وجه به آثار الجدري، تظهر عليه مظاهر القوة والجهل. جلس العمدة بجواري بعد أن قرأ سورة الفاتحة وصلى على النبي ثم سار القطار قاصداً قليوب مكث الشركسي قليلاً يقرأ الجريدة ثم طواها وألقى بها على الأرض وهو:

يحترق من الألم وقال

- يريدون تعميم التعليم ومحاربة الأمية حتى يرتقي الفلاح إلى مصاف
أسياده وقد جهلوا أنهم يجنون جناية كبرى
فالتقطت الجريدة من الأرض وقلت
- وأية جناية؟

.. إنك مازلت شاباً لا تعرف العلاج الناجع لتربية الفلاح
- وأي علاج تقصد؟ وهل من علاج أنجع من التعليم؟
فقطب الشركسي حاجبيه وقال بلهجة الغاضب
..... هناك علاج آخر
وما هو؟

فصاح بملء فيه صيحة أفاق لها الأستاذ من نومه وقال
السوط. إن السوط لا يكلف الحكومة شيئاً أما التعليم فيتطلب أموالاً طائلة
ولا تنس أن الفلاح لا يذعن إلا للضرب لأنه اعتاده من المهد إلى اللحد
وأردت أن أجيب الشركسي، ولكن العمدة حفظه الله كفاني مئونة الرد فقال
للشركسي وهو يبتسم ابتسامة صفراء
- صدقت يا بيه صدقت ولو كنت تسكن الضياع لقلت أكثر من ذلك. إنا نعاني
من الفلاح ما نعاني لنكبح جماحه، ونمنعه من ارتكاب الجرائم

:فنظر إليه الشركسي نظرة ارتياب وقال